(٥)

زواج فاطمة من علي

... تقدم علي لخطبه فاطمة بنتِ رسول الله صلى الله عليه وهو لا يملك من متاع الدنيا شيئاً.. إلا ما يملكه المجاهد في سبيل الله.. الفرس والدرع والسيف.

زواج فاطمة من على

وبانتصار المسلمين الهائل فى معركة بدر ، وهزيمة مكة التى اخرجت الرسول واهله والمسلمين من ديارهم ،كان ذلك نقطة تحول خطيرة فى تاريخ الدعوة كلها . .

فقد أظهر الاسلام قوته .

وأظهر المسلمون قوتهم . . وأنهم اصبحوا قوة لا يستهان بها . . وعرفت القبائل العربية أن القوة المتنامية للاسلام لم تنبع من فراغ ، وأن هذه القوة ستتصاعد قوتها ، وأن الاسلام بالتالى ستقوى شوكته على مستوى شبة الجزيرة العربية وخارج الجزيرة العربية . .

وأيقن اليهود الذين يسكنون شبة الجزيرة . . فى يثرب والقرب منها ، أن الامر أكثر مما تصوروا وأن هذه القوة الجديدة التى اصبح مركزها المدينة المنورة ، بعد الانتصار الساحق على مكة ، سوف تكون خطرا عليها . . وبدأت مؤامرات اليهود تشتد رغم الصحيفة التى اعلنها الرسول عليه الصلاة والسلام ، وأمّنهم فيها على عقيدتهم وأموالهم . !

وبدأت مكة وقد شعرت بمرارة الهزيمة ، وفقدانها لأعز رجالاتها ، بانه لابد لها ان تستعيد مكانتها بين القبائل العربية ، ولن يعيد لها هيبتها المفقودة، الا الاستعداد للثأر من المسلمين . . فأخذت مكة تعمل على قدم وساق للاستعداد لحرب الانتقام ورد الاعتبار . . حتى تعود هيبتها عند القبائل العربية .

ووسط هذا الاستعداد المحموم للاخذ بالثأر من قبل أهل مكة ، ومؤامرات

اليهود التى تكيد للاسلام ونبى الاسلام . . كان عليه الصلاة والسلام يواصل دعوته للناس . . ويؤدى مافرض عليه من عبادات ، أخذ يبث فى الناس تعاليم الاسلام وقيمة وفضائله . . ومافيه من عبادات تقرب العبد من ربه ، ومابه من فضائل تؤدى إلى تماسك المجتمع الاسلامى وتضافره . . وكانت كل الأحداث تشير إلى ان الإسلام يشق طريقه بين القلوب والعقول ، وأن هذا الدين سوف يكون له النصر فى النهاية مهما كانت عقبات الطريق . . ومهما كاد اليهود يتآمروا ، ومهما كاد أئمة الكفر ويخطوا . . لان هذا الدين دين الله ، والله غالب على أمره ولو كره الكارهون .

وكانت أشد الطوائف حقدا على الرسول هم يهود (بنو قينقاع) . الذين كانوا يسكنون وسط مدينة يثرب ، وكانوا يتاجرون فى الذهب والفضة وصناعة السلاح . . فلم يستطيعوا اخفاء حقدهم على انتصار المسلمين فى بدر، واخذوا يهزأون من هذا النصر . . وحذرهم الرسول عليه الصلاة والسلام من مغبة موقفهم الفاضح من انتصار المسلمين ، وأنهم يخالفون ماجاء فى (صحيفة المدينة) ولكنهم لم يستمعوا إلى نصائح رسول الله بالالتزام مما جاء فى الصحيفة، والكف عن اظهار عدائهم للمسلمين . . كانوا مغترين بمالديهم من مال وعتاد وسلاح . .

فنزل قوله تعالى : ﴿وأما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء ، إن الله لا يحب الخائنين ﴾ (الانفال : ٥٨) .

وعن هؤلاء اليهود نزل قوله تعالى :

﴿قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد . قد كان لكم آية فى فئتين التقتا ، فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين ، والله يؤيد بنصره من يشاء ، ان فى ذلك لعبرة لأولى الابصار﴾(آل عمران ١٣) .

ولكن اليهود وقد أعماهم الحقد ، كشفوا على نيتهم الحقيقية ولم يعودوا قادرين على التكيف مع المسلمين ، وبلغ بهم الزهو بقوتهم وأموالهم أن يثيروا المسلمين ، ليشعروهم أنهم هم الأقوى ، وأنه لا قبل لهم بمنازلتهم فاعتدوا على امرأة مسلمة كانت تشترى من سوقهم .

وأعلن عليهم الرسول عليه الصلاة والسلام الحرب . .

وسرعان ما لجأوا إلى حصونهم . وحاصرهم المسلمون حصارا امتد خمسة وعشرين يوما . . واذا بهم وقد شعروا بالانكسار بعدالزهو . . أنهم لا قبل لهم بمجابهة الرسول عليه الصلاة والسلام . . فعرضوا عليه الجلاء عن المدينة .

وأن يأخذوا معهم نساؤهم وأولادهم وبعض الاموال والمتاع . وأن يتركوا للمسلمين مايمتلكون من اراض وأموال وسلاح . .

وقبل الرسول ذلك وخرج بنو قينقاع من المدينة .

وهكذا توالت الانتصارات ، واصبح للمهاجرين الذين كانوا لا يملكون الدور الذين يأوون اليها منازل يعيشون فيها ، ويستقرون بها ، وانتعشت حياتهم الاقتصادية بفضل هذه الغنائم واستقرت الاوضاع للمسلمين . . وقد حدث هذا فى منتصف شوال من السنة الثانية للهجرة ورأى المسلمون فى هذا الانتصار على اليهود بعد الانتصار فى معركة بدر . . بداية حياة مستقرة . . فى مجتمع متماسك مستقر . يرعاه الرسول عليه الصلاة والسلام ، وتحكمة تعاليم مايجئ به وحى السماء .

كان هذا المجتمع الجديد معطرا بروح الدين . . وجمال القيم وروعة الانتصارات . . مجتمع يزهو أن بينه الرسول الخاتم عليه الصلاة والسلام . . الذى يعيش حياته عابدا . . زاهدا . . يبشر بالاسلام ويدعو له ، ويعيش هو نفسه على الكفاف . . رغم ما أفاء الله عليه من غنائم بعد هزيمته لكفار قريش، ويهود بنى قينقاع . . وماكان يخصه وزعه على فقراء المسلمين . .

وفى هذه الظروف التى تحققت فيها هذه الانتصارات . . جاء أبوبكر يخطب صغرى بنات الرسول عليه الصلاة والسلام . . ثم جاء عمر بن الخطاب يخطبها أيضا . . الا أن النبى قابلهما بالصمت ، فادركا أن النبى عليه الصلاة والسلام له رأى أخر .

وتقدم على بن ابى طالب طالبا يدها بعد أن عرف أن أبا بكر وعمر قد تقدما لخطبة فاطمة بنت أعظم رسل السماء ، ولم يسمعا من الرسول قبولا او رفضا . . بل رأياه صامتا .

تقدم على وهو يعلم أنه لا يملك من متاع الدنيا شيئا الا مايملكه المجاهد فى سبيل الله . . الفرس والدرع . . والسيف . .

وتهلل وجه رسول الله عندما تقدم على للزواج من احب بناته إلى نفسه وطلب منه أن يبيع درعه ، الذى بيع باربعمائه وثمانين درهما لعثمان بن عفان، وكان هذا هو مهر فاطمة !

وحضر أبوبكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير ، وبعض الصحابة ، دعاهم على طبق من التمر !

وكان جهاز فاطمة بنت رسول الله عليه الصلاة والسلام جهاز بسيط . . سريرا عليه بسيط من الصوف ، ووسادة من جلد حشوتها من الليف ، ورحى، وقدر مصنوع من الفخار . . وقربة ماء . وفروة كبش !

بجانب ما اشتراه عليه الصلاة والسلام للعروسين : بعض الثياب . . وسوارين من فضة !

هذا هو كل اثاث منزل على بن ابى طالب وزوجته فاطمة الزهراء ذات الثمانية عشر ربيعا . . كان على بن ابى طالب اكثر منها ببضع سنوات .

ويروى بعض الرواه ان فاطمة بكت عندما خطبها على بن ابى طالب .

فقال لها الرسول :

«مالك تبكين يافاطمة ؟ فوالله لقد انكحتك اكثرهم علما وأفضلهم حلما ، وأولهم سلما».

ويروى الرواة ايضا ان الرسول عليه الصلاة والسلام قال لها : «ما أليت أن ازوجك خير أهلى» .

ويورد لنا الأستاذ عباس محمود العقاد :

وفى طبقات ابن سعد أن رسول الله قال لما خطب أبو بكر وعمر فاطمة :

«هى لك يا على ! لست بدجال» .

يعنى لست بكذاب ، وذلك أنه كان وعد عليًا قبل أن يخطبها .

ويروى عن النبى أنه قال لفاطمة :

«ما أليت أن أزوجك خير أهلى» .

وجهزت وما كان لها جهاز غير سرير مشروط ووسادة من أدم حشوها ليف ونورة من أدم (إناء يغسل فيه) وسقاء ومنحل ومنشفة وقدح ورجاءان وجرتان.

وعن أنس بن مالك أن النبى قال له : انطلق وادع لى أبا بكر وعمر وعثمان وطليحة والزبير وبعدتهم من الأنصار ، قال : فانطلقت فدعوتهم فلما أخذوا مجالسهم قال ﷺ :

الحمد لله . . المحمود بنعمته ، المعبود بقدرته ، المطاع لسلطانه ، المهروب اليه من عذابه ، النافذ أمره فى أرضه وسمائه ، الذى خلق الخلق بقدرته ، وميزهم بأحكامه ، وأعزهم بدينه ، وأكرمهم بنبيه محمد ﷺ .

إن الله عز وجل جعل المصاهرة نسبا لاحقا وأمراً مفترضا وحكما عادلاً وخيرا جامعاً ، أوشج بها الأرحام وألزمها الأنام فقال الله عز وجل :

وهو الذى خلق من الماء بشرا فجعلـه نسبا وصهرا وكان ربك قديرا ، وأمر الله يجرى إلى قضائه ، وقضاؤه يـجرى إلى قدره ، ولكل أجل كتاب ، يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب .

ثم أن الله تعـالى أمرنى أن أزوج فاطمة من على ، وأشـهدكم أنى زوجت فاطمة من على . على أربعمائة مثقـال فضة إن رضى بذلك على السنة القائمة والفريضة الواجبة ، فجمع الله شملهما ، وبارك لهما وأطاب نسلهما ، وجعل نسلهما مفاتيح الرحمة ومعـادن الحكمة وأمن الأمة ، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

قال أنس :

وكان علىٌّ علـيه السلام غائبا فى حاجـة لرسول صلى الله علـيه وسلم قد بعثه فيها . . ثم أمر لنا بطبق فيه تمر يوضع بين أيدينا ، فقال :

انتبهوا . . فبينما نحن كذلك إذ أقبل عـلى فتبسم إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال :

يا علىٌّ . . إن الله أمرنى أن أزوجك فاطمة . وإنى زوجتكما على أربعمائة مثقال فضة .

فقال على : رضيت يا رسول الله .

ثم أن عليـا خر ساجدا شاكرًا لله ، فـلما رفع رأسه قال رسول الـله صلى الله عليه وسلم .

«بارك الله لكما وعليكما وأسعد جدكما وأخرج منكما الكثير الطيب» .

قال أنس : والله لقد أخرج منهما الكثير الطيب .

ويقول الأستاذ العقاد :

ومن المرجح جدا أن الزهراء قد استبشرت فـي زواجها على عادة النبى عليه السلام فى تزويج كل بنت من بناته كما جاء فى سند ابن حنبل فيقول لها :

- فلان يذكرك .

فإن سكتت أمضى الزواج .

وإن نفرت الستر علم أنها تأباه .

وفى زواج الزهراء قال لها :

- يا فاطمة . إن عليا يذكرك . فسكتت .

وفى روايات أخرى أنه وجدها باكية ، فذاك حيث قال رسول الله :

- مالك تبكين يا فاطمة ! فوالله لقد أنكحتك أكثرهم علما وأفضلهم حلما وأولهم سلماً .

ولم يجمع كتاب السيرة على الوقت الذى تم فيه الزواج ، ولكنهم قالوا إنه كان بعد الهجرة ، وبعد غزوة بدر . . وأرجح الأقوال كما قدمنا إنها كانت فى الثامنة عشرة من عمرها وزوجها أكبر منها ببضع سنوات .

و . . ذهبت فاطمة إلى بيت زوجها على بن أبى طالب ، فى صحبة جارية الرسول (أم أيمن) . وأخبرهما أنه سيلحق بهما بعد صلاة العشاء .

وبعد أداء صلاة العشاء . . توجه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيت على وفاطمة ، وطـلب من فاطمة أن تأتيه (بكوز) مـن الماء . . ثم أخذ بعض الماء بيديه وقـرأ عليه شيئاً وقال : اللهـم إنى أعيزها بك وذريتها مـن الشيطان الرجيـم ثم أمرهما أن يتـوضأ من هذا الماء ، ويـشربانه ، ثم أخذ بـعض هذا الماء، ونثره على رأسيهما وهو يقول : «اللهم اجعل منهما الكثير الطيب» .

وخرج رسول الـله بعد أن بارك الزوجـين ، إلا أن فاطمة التـى تعودت أن تعيش مع والدها العظيم ، بكت كثيرا .

بكت لأنها ستفارق أعظم الأباء رقه وحنـانا وحبا لها . . وكانت هى نفسها قريبة الشبه به فى مشيتها .

وربما زاد من حزنهـا تذكرها لأمها العظيـمة خديجة بنت خويـلد ، وكأنها كانت تريد أن تراهـا ترفل فى ثياب العرس . ولكن هـذه الوالدة الحنون راقدة تحت التراب . . . !

ربمـا كـل ذلـك الـذى أثار حزنها فـبكت . . ونظر اليها خـاتم رسل الله قائلا لها :

لا تبك يا فاطمـة . . فقد زوجتك أقدم الناس إسلاما . . وأكـثرهم علما، وما زوجتك إلا بأمر الله . ألم تعلمى أنه أخى فى الدنيا والأخرة .

وقد فرحت المدينة لزواج فاطمة من عـلى . . وأهدى سعد بن معاذ (كبشا) للرسول ليـكون وليمة للعروسين . . فـدعا على الناس إلى هذه الـوليمة الذى دعا اليها الناس .

وانتقلت فاطمة إلى بيت يجاور بيـت أبيها . . ورغم نحالة جسمها ، فقد أخذت تعمل فى بيت زوجها بكل ما ملكت من طاقة . . وهى الضعيفة البنية، حتى أنها ذهـبت إلى والدها ذات يوم طالبـة منه أن يأتى لها بخـادمة ، ولكن الرسول قال لها .

ألا أخبرك بخير مما جئتنى من أجله يا فاطمة ؟

قالت: بلى يا رسول الله

قال عليه الصلاة والسلام :

كلمات علـمنى أياهن جبريل ، تسـبحين الله عقب كل صـلاة وتحمدينه ، وتكبرينه ثلاثا وثلاثين مرة .

ثم قال لها :

يا فاطمة : إن من الذنوب ذنوبا لا تكفرها الصلاة ولا الصيام ، ويكفرها العمل والغم بالعيال !

وهكذا كان زواج صغرى بنات رسول الله . وأحبهن إلى قلبه من على بن أبى طالب .

لم يقم لها الأفراح والليالى الملاح . .

ولم ينفق الكثير من الأموال فى تلك الليلة التى نطلق عليها نحن الآن «ليلة العمر» . .

ولكن زوجها بدراهم قليلة ، لتعيش عيشة الكفاف . . وكل ما أوصاه بها هى أن تسبح الله وتحمده وتكبره . . وأن تعمل . . وتتحمل هموم الأطفال عندما يرزقها الله بهم .

لو كان الرسول عليه الصلاة والسلام يريد لها غير ذلك الذى فعل . . لوجد أصحابه الأثرياء وغير الأثرياء من يقدم للعروس الهدايا . . والمال . . ولكن أعظم رسل الله لا يريد المظاهر الكاذبة . . ولا الاسراف فيما لا يفيد ولكنه كان يقول :

«اتخذوا لسانا ذاكرا . . وقلبا شاكرا ، وزوجة تعين أحدكم على دينه» .

ولقد أيقنت الزهراء أن والدها . وهو قدوة كل المؤمنين ـ لا يريد لها إلا أن تقترب من الله بصالح الأعمال . . وصالح الدعاء . . وأن الدنيا لا يجرى وراءها محمد أو أحد من آل محمد . . فأقتنعت بذلك .

وقد عاشت الزهراء منذ وعت على الحياة وهى تشاهد جهاد والدها العظيم عليه الصلاة والسلام . . عندما كان يحارب قوى الشرك والكفر بمكة ، وصمد ضد كل المكائد والأهواء والأحقاد وخرج من مكة مهاجراً وهو يقول وهو يلتفت إلى مكة . . وطنه الذى عاش فيه طفولته وشبابه . . وساعات تأملاته فى كون الله الفسيح :

- والله إنى لأعلم أنك أحب بلاد الله إلى الله وإلى نفسى ولولا أن قومك أخرجونى منك ما خرجت .

وشاهدت حزن الرسول العظيم ، عندما أسر زوج أختها زينب ، وكيف أن زينب أرسلت تفتدى زوجها بقلادة كانت قد أهدتها كهدية زفافهما أمهما الغالية خديجة بنت خويلد .

وقد علمت الزهـراء كيف أهينت أختها زينب عنـدما قررت أن تذهب إلى أبيها فى المدينة ، لأن زوجها كان ما يـزال على كفره . . فقد قرر زوجها (أبو العاص) أن يوفى بعهده لرسول الله ويرسل الـيه ابنته رغم حبه الشديد لها . . وأرسل أخوه (كنانة ابن الربيع) ليودعها خارج مكة حيث كان فى انتظارها (زيد بن حارثة) . . ولكـن هبار بن الأسود الأسدى . . تابعها ، وأخـذ يضايقها مع بعض كفار قريش ، حتى وقعت من فوق بعيرها وعندما شاهدها (كنانة بن الربيع) . . أقسم أن يقتل من يقترب منها . . وخاف الناس، وابتعدوا عنها . .

وتقدم منه رأس الكفر أبو سفيان بن حرب وقال له .

- «إنك لم تصب يا ابن الربيع : خرجـت بالمرأة على رؤوس الناس علانية وقد عرفت مصيبتـنا ونكبتنا وما دخل علينا من محـمد . فيظن الناس أن ذلك من ذل أصابنا ، وأن ذلك منا ضعف ووهن ، ولعمـرى مالنا بحبسها عن أبيها من حاجة . ولكن ارجع بها حتى إذا هدأت الأصوات . . تحدث الناس أن قد رددناها . فتسلل بها سرا فالحقها بأبيها» .

وهال ابن الربيع أن يرى (زينبا) . . وهى تـنزف بعد أن طرحت الجنين التى تحمله فى أحـشائها ، فرق بها وعاد بـها إلى بيتها حتـى تستعيد عافيـتها ، ثم أرسلها إلى ابيها .

إن فاطمة تتذكر محنة أختها ، وكيـف استقبلها والدها ، وكيف كانت هى

على شوق ان يهدى الله زوجها إلى الاسلام ، حتى تعود لاسرته الوئام والحب الذى كانا يظللان بيتهما فى مكة . . وبعد ست سنوات أسلم أبو العاص بن الربيع، ولحق بها فى المدينة ، ولكنها ماتت بعد ذلك بعام وبضع أشهر .

أحزان وأحزان مرت بالبيت النبوى . . تتذكرها الزهراء جيدا ، وتتذكر أن والدها العظيم . . يقضى نهاره معلما للناس . . يهديهم بما يوحى اليه من أوامر العلى الجليل . . ومع ذلك فهو يجابه المنافقين الذين يظهرون مالا يبطنون، واليهود من حوله فى المدينة الذن يتربصون به الدوائر . . والخطر الكامن فى مكة التى تتحين الفرص لتثأر من هزيمتها فى بدر .

ومضت الأيام . . وتوالت الغزوات .

جاءت غزوة «أحد» التى حاولت فيها مكة أن تثأر من معركة «بدر» . . وكاد المسلمون ينتصرون فى هذه المعركة لولا أنهم خالفوا أمر الرسول . . فقد كان الرسول قد أمر الرماة ألا ينزلوا من جبل أحد ، ولا يتركوا مواقعهم إذا لاح لهم النصر حتى تنتهى المعركة ، ولكن ما أن بدأت بشائر النصر حتى ترك الرماة مواقعهم بحثا عن الغنائم ، وكانت فرصة انتهزها خالد بن الوليد ــ وكان لا يزال على الكفر - وحقق انتصارا . . ولولا التفاف بعض المسلمين حول الرسول عليه الصلاة والسلام ، وقتالهم الشديد ، لتغير مسار التاريخ الانسانى كله .

وقد آثرت قريش أن تنسحب قبل أن تحقق الانتصار الكامل خوفا أن تدور الدائرة عليهم وهم يرون المسلمين ، وقد أخذوا يردون الهجوم عن الرسول بضرارة منقطعة النظير فآثروا الانسحاب .

وشاهدت الزهراء كيف تألفت قوى الاحزاب ضد المسلمين إلى أن أشار سلمان الفارسى فى حفر خندق حول المدينة ، ثم توالت الاحداث ، فاختلف الأحزاب ، وفرق الله شملهم .

كما شاهدت انتصارات المسلمين على اليهود الذين تألبوا على الرسول وخانوا العهد ، وكيف حاصر الرسول يهود بنى قريظة ، ويطهر المدينة منهم بعد هزيمتهم ثم شهدت فتح مكة ، ودخول الناس فى دين الله أفواجاً . .

أيام كلها جهاد وكفاح وعرق وجلد على المصاعب . . وحتى بعد أن وحد النبى شبه الجزيرة العربية كلها تحت لوائه وبعد أن عم نور الاسلام كل ارجاء شبه الجزيرة ، وبعد أن أرسل رسائله إلى ملوك العالم وحكامه يدعوهم إلى الاسلام ، فلم يعش الرسول أو أحد من آل بيته عيشه حاكم أو أمير . . بل عاشوا عيشة الكفاف . . فالنبى عليه الصلاة والسلام نفسه هو أزهد الزهاد فى الدنيا ، وأتقى الأتقياء ، وأخشى الناس لربه وقد روى عن الامام على بن أبى طالب قوله :

سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سنته فقال :

«المعرفة رأس مإلى ، والحب أساسى ، والشوق مركبى ، وذكر الله أنيسى، والثقة بالله كنزى ، والحزن رفيقى ، والعلم سلاحى ، والصبر دائى ، والرضا غنيمى ، والعجز فخرى ، والزهد حرفتى ، واليقين قوتى ، والصدق شفيعى ، والطاعة حسبى ، والجهاد خلتى ، وقرة عينى فى الصلاة » .

ولقد رأى عمر بن الخطاب الرسول عليه الصلاة والسلام يتوسد بحشبه من ليف فبكى ، فقال الرسول : ما يبكيك ؟

فقال عمر : وما لى لا أبكى وكسرى وقيصر يعيشان فيما يعيشان فيه من الدنيا ، وأنت على هذه الحال التى أرى !

فقال محمد صلى الله عليه وسلم :

يا عمر . . أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الأخرة ؟

قال : بلى .

ـ قال : هو كذلك .

ويروى أبو داود فى سننه أن سائلا سأل بلال قائلا :

كيف كانت نفقة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقال : ما كان له شىء من ذلك إلا أنا الذى كنت إلى ذلك منه منذ بعثه الله تعالى إلى أن توفى ، فكان إذا أتاه المسلم فرآه عائلا يأمرنى فانطلق ، فاشترى له البردة ، والشىء فاكسوه وأطعمه ، حتى اعترضنى رجل من المشركين فقال لى :

إن عندى سعة فلا تقترض إلا منى ففعلت ، فلما كان ذات يوم توضأت ثم قمت لأؤذن بالصلاة ، فإذا المشرك فى عصابة من التجار ، فلما رآنى قال لى: يا حبشى

قلت : يا لبيه ، فتجهمنى ، وقال قولا عظيما غليظا . . وقال أتدرى كم بينك وبين الشهر !

قلت : قريب

قال : إن بينك وبينه أربع ليال ، فأخذك بالذى لى عليك ، فإنى لم أعطك الذى أعطيتك من كرامتك ، ولا من كرامة صاحبك ، وإنما أعطيتك لتصير لى عبدا . فأذرك ترعى فى الغنم كما كنت قبل ذلك .

قال بلال : فأخذنى فى نفسى ما يأخذ أنفس الناس ، فانطلقت ، فناديت بالصلاة حتى إذا صليت العتمه ، ورجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهله ، فأستأذنت عليه فأذن لى : فقلت يا رسول الله بأبى أنت وأمى ، إن المشرك الذى ذكرت لك إنى كنت أتدين منه قال كذا وكذا ، وليس ما يقضى عنى ولا عندى وهو فاضحى ، فاذن لى أن آتى بعض هؤلاء الاحياء الذير قد أسلموا حتى يرزق الله تعإلى رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم ما يقضى به

عنى ، فخرجت حتى أتيت منزلى ، فجعلت سيفى وحرابى ورمحى ونعلى عند رأسى ، فاستقبلت رأسى الأفق ، فكلما نمت انتبهت ، فاذا رأيت رجلا نمت حتى اتسق عمود الصبح الأول ، فاردت أن أنطلق ، فإذا إنسان يدعونى ، يا بلال أجب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فأنطلقت حتى أتيه ، فإذا أربع ركائب عليهن أحمالهن ، فأتيت رسول الله عليه الصلاة والسلام فاستأذنت ، فقال لى رسول الله :

أبشر فقد جاءك الله بقضاء دينك . . فحمدت الله .

وقال : ألم تمر على الركائب المناخات الأربع .

قلت : بلى

قال : قل فإن لك: رقابهن وما عليهن . فإذا عليها كسوة وطعام أهداهن اليه صاحب فدك ، فاقبضهن اليك ، ثم اقض دينك ، ففعلت فخططت أحمالهن، ثم علقتهن ، ثم عمدت إلى تأدية صلاة الصبح ، حتى إذا صلى رسول الله صلى الله تعإلى عليه وسلم خرجت إلى البقيع ، فجعلت أصبعى فى أذنى فقلت : من كان يطلب من رسول الله عليه الصلاة والسلام دينا، فليحضر فمازلت أبيع وأقضى ، وأعرض حتى لم يبق على رسول الله صلى الله عليه وسلم دين فى الأرض حتى فضل عندى أوقيتان ، أو أوقيه ونصف ، ثم انطلقت إلى المسجد ، وقد ذهب عامة النهار فإذا برسول الله عليه الصلاة والسلام قاعد فى المسجد وحده ، فسلمت عليه فقال لى :

ما فعل الله قبلك ؟

قلت : قد قضى الله كل شىء كان على رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فلم يبق شىء .

قال : فضل شىء ؟

قلت : نعم ديناران .

قال : انظر أن تريحنى منهما ، فلست بداخل على أحد من أهلى حتى تريحنى منهما ، فلم يأتنا أحد ، وظل فى المسجد حتى اليوم التإلى ، حتى إذا كان آخر النهار جاء راكبان ، فانطلقت بهما فكسوتهما ، وأطعمتهما ، حتى إذا صلى العتمة دعانى فقال !

ما فعل الله تعالى قبلك ؟

قلت : قد أراحك الله تعالى منهما .

فكبر وحمد الله تعالى شفقا من أن يدركه الموت ، وعنده ذلك . ثم اتبعته حتى جاء أزواجه فسلم على امرأة امرأة حتى أتى مبيته !!

هذه هى أخلاق الرسول عليه الصلاة والسلام وزهده . .

. . وهكذا كانت تربيته لبناته :

إثيار الآخرة عن الدنيا .

وفاطمة الزهراء تعرف أن والدها خيرً زوجاته بأن يرضين بما قسم الله لهن من الرزق عندما حاولن إيثار الدنيا . . وأن يسرحهن . . فاخترن البقاء إلى جانبه عليه الصلاة والسلام .

(٦)
سحابة صيف فى بيت فاطمة

« أرقبوا محمداً فى أهل بيته»

حديث شريف

رواه البخـارى

سحابة صيف فى بيت فاطمة ..

عاشت فاطمة فى بيتها سعيدة بزوجها على بن ابى طالب . الفارس صاحب البطولات فى غزوات الرسول ، وصاحب الحديث الممتع والبيان الشائق . . ورغم أنها كانت تعيش على الكفاف فهى راضية بحياتها . راضية بما قسم الله لها من العيش الحلال . . فأبوها هو القدوة والمثال .

وأبوها لا يعيش فى قصر . . ولا فى بيت به الاثاث الفاخر ، ولكن أثاثه الحصير الذى كثيرا مايترك على جسمه الشريف بصماته .

وسعدت فاطمة كثيرا عندما رزقت بابنها الحسن . . وقد أسماه الرسول بهذا الاسم . . ثم مالبثت أن حملت بالحسين . .

وكانت أم الفضل بنت الحارث قد رأت رؤيا قصتها على الرسول صلى الله عليه وسلم قائلة له [1] :

«رأيت فى بيتى طرفا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجزعت من ذلك ، فأتيته فذكرت له ذلك فقال صلى الله عليه وسلم : هو ذاك ، فولدت فاطمة حسينا فأرضعته حتى فطمته» .

وكان عليه الصلاة والسلام يعوذهما من الشيطان قائلا : أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامه ، ومن عين لامه[2] .

---

(١) أخرجه الطبرانى فى معجمه الكبير، والحاكم فى المستدرك وصححه .

(٢) رواه ابن عباس .

وكان عليه الصلاة والسلام يقول عنهما:

«الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة ، اللهم إنى أحبهما فأحب من يحبهما ».

وكان الحسن والحسين يذهبان إلى مسجد الرسول ، ليجدوا الحفاوة من جدهما العظيم عليه الصلاة والسلام .. او كما يروى أبو هريرة :

«كنا نصلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة العشاء ، فإذا سجد وثب الحسن والحسين على ظهره ، فإذا ارفع رأسه أخذهما أخذا رقيقا فيضعهما على الارض ، فإذا عادا حتى قضى صلاته ، أقعدهما على فخذية» .

قال : فقمت إليه فقلت : يا رسول الله .. أردهما إلى امهما ؟ قال : لا .. فبرقت برقة فقال لهما : الحقا بأمكما ، قال : فمكثت حتى دخلا على أمهما .

ويروى الرواة أنه كان عليه الصلاة والسلام على المنبر يخطب الناس ، وشاهد الحسن والحسين ، يتعثران فى المسجد فنزل من فوق منبره ، وأخذ بيدهما .. وعاد ليكمل خطبته ، ويقول :

صدق الله العظيم :

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ الانفال ـ ٢٨ وما كان أكثر مايمر على منزل فاطمة ليطمئن على أولادهما . كان منزلها هو منزله .

وكان أولادهما هم أولادة ..

وكان يشير وهو متجه إلى المسجد إلى منزلها ويقول :

«السلام عليكم أهل البيت» .. ثم ينادى الصلاة الصلاة فإذا كان معهم لفهم جميعا فى ثوب واحد وقال لهم :

أنا وأنتم يوم القيامة فى مكان واحد .

وكان من عادة الرسول الكريم عندما يأتى من سفر أن يتوجه إلى المسجد فيصلى فيه ركعتين ، ثم يزور فاطمة ، وبعدها يمر على ازواجه .

وحدث ذات يوم وهو يمر على فاطمة ، أن رآها تتزين بقرطين من فضه ، وسوارين جديدين ، ووضعت ستارة جديدة على باب بيتها ، فبدأ الغضب على وجهه ، ولم يحدثها وتوجه نحو المسجد . .

وشعرت فاطمة أن ما رآه والدها فى يدها وفى بيتها لم يرق له ، فأرسلت اليه فى المسجد بما تملك متبرعه بهم فى سبيل الله .

وابتسم الرسول وقال موجها حديثة للناس :

«ليست الدنيا من محمد وآل محمد . . ولو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضه ماسقى الكافر منها شربه ماء».

عاشت فاطمة مع أولادها وزوجها فى سعادة غامرة رغم شظف العيش . . الا أن حدثت حادثة أغضبت فاطمة ، فقد سمعت الزهراء أن عليا يريد ان يتزوج من فاطمة بنت عمر بن هشام بن المغيرة (أبو جهل) وأستأذن أهلها الرسول فى هذا الزواج . . وذهبت فاطمة إلى والدها حزينه باكية قائلة له :

يزعمون أنك لا تغضب لبناتك ! وخرج الرسول عليه الصلاة والسلام إلى المسجد ، وصعد المنبر . . وخطب الناس :

«الا ان بنى هشام بن المغيرة استأذنونى فى أن يزوجوا بنتهم عليا ، وإنى لا آذن ثم لا آذن . . إنما فاطمة بضعة منى ، يغضبنى ما يغضبها ».

انها الزهراء . .

أحب بنات رسول الله إلى نفسه . . والذى قال فيها :

«إنه كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء الا مريم ابنه عمران، وآسيه بنت مزاحم امرأة فرعون ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ».

روى هذا الحديث البخارى ومسلم والترمزى .

ومرت هذه السحابة فى حياة الزهراء . . كسحابة صيف انقشعت .

وعائشة أم المؤمنين تقول :

«ما رأيت أحدا من خلق الله أشبه حديثا وكلاما برسول الله من فاطمة ».

وكانت إذا دخلت عليه أخذ بيدها فقبلها ، ورحب بها وأجلسها فى مجلسه .

وكان إذا دخل عليها قامت إليه ، ورحبت به وأخذت يده فقبلتها.

إنها الزهراء الذى قال عنها فيما قال : «فاطمة سيدة نساء أهل الجنة» .

وقد رزقت من على بن ابى طالب : الحسن والحسين ، ومحسن ، زينب ، أم كلثوم ، رقية .

ولم يتزوج عليها على بن ابى طالب طوال حياتها .

وكانت الزهراء . . بليغة . . نصيحه . . نسبوا اليها أنها كانت تقول الشعر، بينما قال أخرون إنها رغم فصاحتها وترديدها للشعر الجيد التى كانت تحفظة ، إلا أنها لم تكن شاعرة . . وكلا الرأيين يدل على أن الزهراء سواء أكانت تقول الشعر أو تحفظة أو تردد جيده أم لم تنظم الشعر ، فهذا يدل على أن الاجماع عند الذين تحدثوا عنها أنها كانت صاحبة بيان ، ولسان فصيح . . وهذا ليس بمستغرب على الزهراء التى عاشت فى كنف أبلغ البلغاء ، وافصح الفحصاء . . وهو والدها عليه الصلاة والسلام ، وزوجها المشهور ببلاغته وقوة حجته وفصاحته .

(٧)

وفـاة الرسـول عليه الصلاة والسلام

«إنك أول أهلى لحوقًا بى . ونعم السلف أنا لك .. الا ترضين أن تكونى سيدة نساء هذه الامة ».

حديث شريف

رواه البخـارى

وفـاة الرسول

مضت الأيام . .

وحقق رسـول الله صلى اللـه عليه وسلـم ما كان يتمـناه من نشر تعـاليم الإسلام . . وجاءت الوفـود من كل أنحاء شبـه الجزيرة لمبايعـة رسول الله . . وعرف العرب لأول مرة الوحدة تحت راية واحدة وهى راية الاسلام . . وأعطى الرسول إشارة البدء ليخرج الاسلام من شبه الجزيرة الـعربية لينتشر فى مختلف انحاء العالم . من خـلال الرسائل التى أرسلها لملوك العالـم وحكامه يدعوهم فيهـا الاسلام ، ومن خلال المجابـهة مع الروم فـى مؤته ، ثم بعـد ذلك فى تبوك . . والغزوة الاخيرة قـادها بنفسه علية الصلاة والسـلام ولم يستطع الروم مجابهته وآثروا مهادنته .

وكانت كل الأمور تشير إلى قرب رحيل الرسول إلى أكرم جوار .

لقد حج بالـناس حجة الوداع ، وخطب فيهـم خطبته الجامعة الـرائعة التى حدثهم فيها بوصاياه الاخيرة ، واهمية التمسك بالكتاب والسنة ورعاية النساء، وفيها نزل قوله تعالى :

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ (١).

وما دام الدين قد كمل ، والنعمة تمت ، فلا يبقى سوى الرحيل . . بل أن الرسول نفسه قد ألمح إلى ذلك عندما قال للناس :

---

(١) المائدة : ٣.

«اسمعوا قولى . . فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا ، بهذا الموقف أبدا . . ».

وعاد الرسول الكريم إلى المدينة ، بعد أن ودع مكة الوداع الاخير . . كان يشعر بأنه فى نهايات العمر . . فكان يعظ الناس ، ويكثر من العبادة . . وقال للناس ذات يوم :

«أنى فرطكم ، وأنا شهيد عليكم ، وإنى والله لأنظر إلى حوضى الأن ، وإنى أعطيت مفاتيح خزائن الأرض ، وأنى والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدى ، ولكن أخاف عليكم فتنة الدنيا ، وأن تنافسوا فيها ». { البخارى}.

وأخذ يدفع المسلمين إلى التقرب إلى الله ، ويصف لهم الجنة وأهلها ، والنار واهلها .

قال لهم عن الجنة : كما جاء فى البخارى:

«إن أهل الجنة يتراءيون - يعنى يتراءى بعضهم لبعض - أهل الغرف من فوقهم ، كما تراءون به الكوكب الغابر فى أفق السماء من المشرق او المغرب ، لتفاضل مابينهم .

قالوا : يارسول الله ، منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم ؟

قال: بلى ، والذى نفسى بيده : رجال آمنوا بالله وصدَّقوا المرسلين .

قال لهم ذات يوم :

أريت الجنة ، فتناولت عنقودا ، ولو أحبته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا . .

وأريت النار فلم أر منظرا كاليوم أفظع . { رواه الإمام البخارى}.

ومرض عليه الصلاة والسلام مرض الموت . .

وتجلس إلى جانبه طوال ايام مرضه فاطمة الزهراء . . أنها تحاول أن تخفف ما ألم به من مرض . . ولكن الرسول كان يعرف ـ بوحى من ربه ـ أنه سيلاقى ربه .

جاءه عمه العباس يحكى له رؤيا رآها فى منامه ، وهذه الرؤيا هو أنه رأى القمر رفع من الارض إلى السماء ! ويقول له الرسول الكريم : هو ابن أخيك. ويطلب من ابنته فاطمة أن تقترب منه ، ويسر إليها بحديث فتبكى، ثم يسر لها بحديث أخر فتضحك فما سر بكاء الزهراء ؟ وما سر ضحكها ؟ قال لها عليه الصلاة والسلام :

«ان جبريل كان يعارضنى بالقرآن فى كل سنة مرة ، وإنه عارضنى هذا العام مرتين . . وما أراه إلا قد حضر أجلى».

فبكت فاطمة .

وقال لها : "أنك أول أهلى لحوقا بى ، ونعم السلف أنا لك ، الا ترضين أن تكونى سيدة نساء هذه الأمة» ؟. [رواه البخارى].

مرَّ أحدى وثمانين يوما بعد حجة الوداع . . عندما اشتد المرض بالرسول الكريم ، وودع الدنيا بعدها ، وكان ذلك فى يوم الاثنين ، الثانى عشر من ربيع الاول من السنة الحادة عشرة من الهجرة . وكان قد بلغ من العمر ثلاثة وستين عاما .

وقبيل الرحيل كانت السيدة عائشة قد رأت خاتم النبين ، وهو يشخص ببصره ، ويجيب كأنه قد وجه إليه سؤال من عالم الغيب.

ـ بل الرفيق الاعلى والجنة

فقالت عائشة :

ـ خيرت فاخترت والذى بعثك بالحق .

ومالبث الناس فى مدينة الرسول ان سمعوا صوت الزهراء تنعى والدها العظيم عليه الصلاة والسلام .

أبتاه . . أبتاه . . يا أبتاه

أجاب ربا دعاه

يا أبتاه . . جنة الفردوس مأواه

يا أبتاه . . إلى جبريل منتقاه ننعاه

وانبعثت أصوات البكاء التى تنم عن الحزن العميق من بيت رسول الله .

ووجمت مدينة الرسول ولفها الحزن العميق .

إن محمد (صلى الله عليه وسلم) الذى أتم الرسالة وهدى الناس إلى دين الله قد غادر دنيا الناس . !

وكيف يتغلب الناس على هذا الحزن العميق الذى هز المدينة بأسرها ؟

كيف تكون المدينة بدون أن يتردد بين جنباتها انفاس أعظم رسل السماء . ؟

ودفن رسول الله حيث مات فى حجرة عائشة . وعندما دفن قالت ابنته الزهراء لأنس بن مالك ، بكل مشاعر الابنه التى أحبت والدها حبا جما .

ـ يا أنس . . كيف طابت أنفسكم أن تنثروا التراب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

ويعبر أنس بن مالك عن ذلك اليوم الذى غادر فيه الرسول دنيانا بقوله كما أخرجه الإمام أحمد فى المسند:

«لما كان اليوم الذى دخل فيه النبى صلى الله عليه وسلم المدينة أضاء منها كل شئ . فلما كان اليوم الذى مات فيه أظلم منها كل شئ . . وما نفضنا أيدينا من دفنه حتى أنكرنا قلوبنا».

وقد عبر على بن أبى طالب ابن عمه وزوج ابنته فاطمة عن هذا المشهد الأليم بقوله :

«لقد انقطع بموتك مالم ينقطع بموت غيرك من النبوة والانبياء وأخبار السماء . لولا أنك أمرت بالصبر ، ونهيت عن الجزع لأنفدنا عليك ماء الشئون . . ولكان الداء مماطلا ، والكمد محالفا ، وقلالك . . ولكنه مالا يملك رده ، ولا يستطاع دفعه . . بأبى أنت وأمى . . اذكرنا عند ربك . . واجعلنا فى بالك».

وعندما وارى الجسد الطاهر التراب قال على :

«إن الصبر لجميل إلا عنك . . وإن الجزع لقبيح إلا عليك . . وأن المصاب بك لجليل ، وإنه قبلك وبعدك لجلل» . . . .